

الوضع الرهيب هل كان على المسلمين أن ينشغلوا بالرثاء والتأين والنعي على وفاة الرسول، أم أن يهتموا فوراً بحل أمر الخلافة، لكي يستطب لهم الأمر. وازداد هذا الوضع تدهوراً وخطورة عندما بدأ الأنصار النقاش حول هذا الموضوع بدورهم، فكان من اللازم في هذا الوقت الحرج أن يرد على دعوى الأنصار للخلافة وأن يتم انتخاب من هو أليق بهذه المهمة بأسرع ما يمكن من الوقت. وكان أبو بكر هو الأكبر سنًا والأقوى تأثيراً من بين من حضر في هذا الاجتماع فكان من المقرر أن يتم انتخابه، لكن المسلمين قد وقعوا في نزاع وجدال مع الأنصار، كان قد أطلال الجدال والنزاع وأوشك أن تستل السيوف من أعمادها، ففطن عمر رضي الله عنه لهذا الوضع واندفع يضع يده في يد أبي بكر قائلاً بأنني أول من يبايعك في أمر المسلمين، وإذا به امتدت أيدي عثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم للبيعة، ثم تداعت وتتابع الجماهير من الناس مبايعة على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وبهذه العملية انسد السيل الجارف وانشغل الناس مطمئنين بأعمالهم".

هذا يعني أن العلامة شبلي يعتقد أن اجتماع الصحابة الكرام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة في سقيفة بني ساعدة واختيارهم أبا بكر خليفة لهم كان قراراً صائباً لا حرج فيه وأن ما قام به عمر رضي الله عنه بهذا الصدد، كان في أوانه ينم عن كياسته وبعد رؤيته للغاية. ولا شك في أن اعتقاده هذا كان مبنياً على حقيقة أن المسلمين كان قد تفرق شملهم واندفعوا في الحرب الأهلية، لولا عمر رضي الله عنه فعل ما فعل.

هذا الحادث أيضاً لم يسترع انتباه كتاب السير الآخرين، حيث أنهم لم يولوا اهتماماً خاصاً به، بل اكتفوا بإلقاء نظرة عابرة عليها بدون بحث وتمحيص.

قد بين شبلي للاطلاع على مدى صحة الوقائع أمرين أو منهجين: الرواية والدراسة. يقول بصدد "الرواية" أنها تعني نقل الرواية بواسطة من شهد بها بنفسه وأن تكون الرواية متصلة الإسناد من أول راوٍ لها إلى آخرها، ثم يجري البحث عن جميع رواة الحديث في صدقهم وأمانتهم وقوة حفظهم.

ويقول بصدد الدراية أنها تقصد نقد الحادث في ميزان الأصول النقدية ومن خصائص شبلي أنه يراعي هذه الأصول النقدية في البحث والتنقيب عن الوقائع ولا يهملها أبداً. وخير نموذج لهذه الدعوى هو تحقيقه المفصل في رواية "القرطاس".

أما الجزء الثاني لكتاب "الفاروق" فهو أكثر وأجود تحقيقاً من الجزء الأول، يدور حول الترتيبات والتنسيقات الاجتماعية والدينية خلال فترة الخلافة الفاروقية، ثم يتحدث مفصلاً عن منجزات عمر الفاروق العلمية وقيمه الخلقية والسلوكية. يمثل هذا الجزء حسب قول المؤلف نفسه مجهوده ومسعاها المشكور إزاء تأليف هذا الكتاب. بدأ هذا الجزء باستعراض انتصارات حربية تحققت في العهد الفاروقي وقد تقدمت تفاصيلها في الجزء الأول. أما هذا الجزء الثاني فهو يتحدث عن الأسباب والعلل وراء هذه الانتصارات الباهرة، كما هو يكشف الستار عن الإشاعات والأقاويل التي روجها المؤرخون الغرب بهذا الصدد ويقدم الصورة الصحيحة الصادقة بالأدلة والبراهين. هكذا أثبت المؤلف في هذا السياق أن عمر الفاروق رضي الله عنه هو أكبر فاتحي العالم فيقول بعد إلقاء الضوء على تفاصيل هذه الفتوحات الإسلامية وأسبابها:

"وفي ضوء تفاصيل هذه الوقائع كلها، يتجلى بوضوح أنه لم يعرف تاريخ العالم بعده فاتحاً يعادل عمر الفاروق رضي الله عنه".

ثم نعر في هذا الجزء على معلومات تتعلق بالنظام الحكومي للعهد الفاروقي مثل الشؤون الإدارية وقسم الإيرادات المالية ونظام العدل والمساواة وقسم الشرطة وإدارة بيت المال ووزارة المرافق العامة ونظام الجيش ومنهج التعليم وحقوق الذميين. وأهم هذه المعلومات كلها تلك التي تتحدث عن نظام العدل في العهد الفاروقي. فإنه ذكر في هذا السياق رسالة عمر الفاروق رضي الله عنه إلى حاكم الكوفة أبي موسى الأشعري ثم قارنها مع "الأصول الاثني عشر" لمملكة الروم وأثبت بالبراهين أن هذه القوانين الفاروقية هي أفضل وأجمع من تلك التي وضعتها مملكة الروم، إذ أنها تهتم بالأصول المتشعبة للمدنية والتحضر على مستوى أكبر. كان عمر الفاروق يولي اهتماماً خاصاً بمصلحة "القضاء" ويضمن في جميع الأحوال بتحقيق العدل لدى كل

مواطن سويًا بدون أي نوع من التمييز ولا شك في أن منهجيته ورقابته الصارمة على هذه المصلحة قد أنتجت عن نتائج إيجابية وبعيدة المدى وكما يقول شبلي:

"ومن معطيات ما وضع ونفذ عمر الفاروق رضي الله عنه من القوانين الصارمة ذات الصلة بالقضاة وإجراءاتهم أن ظل القضاة أبرياء من تهمة الجور والظلم، لا فقط في عهد خلافته، بل حتى العهد الأموي".

بعد ذلك نجد بحثًا دقيقًا لحقوق الدمييين في هذا الجزء، ففي هذا المجال أيضًا استخدم العلامة شبلي ذكاه وبصيرته التاريخية وأثبت في ضوء المصادر التاريخية الموثوق بها أنه ما قام به عمر الفاروق رضي الله عنه من السلوك غير الانحيازي مع الطبقة المغلوبة أو المهزومة وما أقر لها من حقوقها المدنية، لا تستطيع أن تقدم نظيره الدول الأوروبية، التي تعتر بحضارتها وثقافتها والمحافظة على الحقوق البشرية، فلذلك نرى أن مواطني الدول المغلوبة كانوا مولعين شغوفين بالغزاة المسلمين، عندما كانوا يرون بأعينهم حسن سلوكهم وطيبة خلقهم وصدق قولهم، فيقول شبلي:

"كانت مملكتا الروم وفارس حتى في فترة ازدهار حكمهما لا تستطيعان أن تقاوما الغزاة المسلمين بفضل ما تعودوا عليه في صحبة مؤسس دين الإسلام من الحماس الديني والعزم الراسخ والجرأة وطموح الهمة والشجاعة وغيرها من الخصائص، التي ازدادت قوة واشتعالًا بقيادة عمر الفاروق رضي الله عنه. غير أن هذه الخصائص، رافقتها خصيصتان بارزتان، ساعدتا لا فقط في نيل الفتوحات الإسلامية، بل في إقامة الدولة الإسلامية. وكان في طليعة هاتين الخصيصتين: صدق المسلمين وأمانتهم، فبعد أن فتحت لهم أي منطقة، كان ساكنوها يحبون المسلمين وصدقهم إلى حد كانوا لا يطمعون أبدًا في انهيار حكومتهم، بالرغم من اختلافهم في الديانة، فلما غادر المسلمون المناطق السورية إبان معركة اليرموك دعا المسيحيون لربهم أن يعيدهم في هذه المناطق مرة أخرى وقالت اليهود رافعة التوراة في أيديهم بأن القيصر لن يدخل هذه المنطقة ما دمنا أحياء".

وفي نهاية هذا الجزء تم ذكر الأحوال الذاتية لعمر الفاروق وعاداته وأخلاقه، فألقى فيه شبلي الضوء على مختلف نواحي حياته وقارنه مع كبرى شخصيات العالم، ثم أثبت أن ما كان يتصف به عمر رضي الله عنه به من الخصال والفضائل، لم يتصف به أحد غير الأنبياء قائلًا:

"يعرف من له اطلاع على أسرار نواميس الطبيعة جيدًا أن الفضائل البشرية لها أنواع، ولكل فضيلة منى مختلف، يحدث في أغلب الأحيان أن يكون الرجل لا نظير له في العالم في ميدانه الخاص، ولكنه في نفس الوقت لا ينال حظًا من الفضائل الأخرى. فالإسكندر المقدوني كان أكبر فاتحي العالم بلا شك، ولكنه لم يكن حكيماً. وأرسطو كان أكبر حكماء العالم، غير أنه لم يكن فاتحاً. اتركوا وشأن عظام الخصال، من الصعب جدًا أن تجتمع في شخص واحد جميع صفات الفضائل. هناك أبطال كثيرون، كانوا نموذجًا للشجاعة، ولكنهم لم يكونوا على خلق عظيم. والكثيرون كانوا أصحاب الخلق الرفيع، غير أنهم لم ينالوا حظًا من الكياسة والتدبير. والآخرون كانوا يجمعون بين هاتين الصفتين، إلا أنهم كانوا محرومين من العلم والفضل.

والآن انظروا في شخصية عمر الفاروق وجوانبه المتعددة، تجدوا أنه كان إسكندر المقدوني وأرسطو الحكيم، وكان المسيح الطبيب وسليمان الملك، وكان تيمور الحاكم وأنوشيروان العادل، وكان أبا حنيفة الفقيه وإبراهيم الأدهم الزاهد.

ثم انظروا إليه من ناحية القيم الخلقية، تروه ليس هناك أحد يماثله غير الأنبياء: الزهد والعفاف، الحلم والتواضع، البساطة والسهولة، الصدق واتباع الحق، الصبر والرضا، الشكر والتوكل، هل كانت تتوفر هذه الصفات في أمثال لقمان وإبراهيم الأدهم وأبي بكر وشبلي ومعروف الكرخي بقدر ما كانت تتوفر من النبوغ والكمال في شخصية عمر الفاروق رضي الله عنه؟"

الدراسات المقارنة ومنهج التحليل التقابلي بين كبار شخصيات العالم صفة يمتاز بها العلامة شبلي من غيره من كتّاب السير، الطريقة التي تستقر بها مكانة صاحب السيرة وأهميته في نفوس القراء بشكل مؤثر إيجابي وهذا هو المقصود من كتابة السير

والتاريخ. وليس من شك في أن رسم صورة صاحب السيرة بطريقة تتجلى بها جميع جوانب شخصيته عمل صعب المراس، لا يتأتى بمجرد التلاعب بالألفاظ والإطراء الزائد أو اللجوء إلى المدح والثناء أو إبداء معجزات ما فوق الفطرة أو بصورة أخرى بمجرد التجريح والنقد اللاضروي وإظهار العداء والكراهية. بل من اللازم ومن واجبات كاتب السيرة أن يبدي رأيه مستنداً إلى الشواهد القاطعة وأن يقوم بالتحقيق الشامل في جميع ملابسات صاحب السيرة، إيجابية كانت أو سلبية، مستعيناً بأصول "الرواية والدراية" كليهما، ثم يقدمها إلى القراء مضبوطة ومتسلسلة الأجزاء وعليه أن لا يفرض رأيه على ذهن القارئ، بل يدعه يحدّد قيمة العمل في ضوء دراسته، وعلى هذا الأساس عندما ننظر إلى كتاب "الفاروق" للعلامة شبلي، نجد أنه نجح كلياً في القيام بهذا الجانب الفني ولذلك لا نرى أحداً يتردد في التسليم بأفضلية "الفاروق" على جميع ما كتب بالأردوية حول حياة عمر الفاروق رضي الله عنه. بل إنها تتفوق في بعض الجوانب على كل من كتابي "عمر الفاروق الأعظم" للدكتور محمد حسين هيكل و"شهيد المحراب عمر بن الخطاب" للسيد عمر التلمساني. وكان شبلي بذاته يحب كتابه هذا أكثر من إنتاجاته الأخرى ما عدا "سيرة النبي".

9. الفرق لعابد علي بيغ قزلباش

لقد صح ما كان السير سيد أحمد خان أبداه في زمن تأليف كتاب "الفاروق" من التشوش العلمي بعد ظهوره في حيز الوجود إلي حد ما، وأصبح الكتاب عرضة للنقد والتجريح من قبل الطبقات المحددة وتم اتخاذ خطة للرد عليه وعهد هذا الأمر إلى العالم الشهير والكاتب المعروف المرزا عابد علي بيغ قزلباش، فكتب استعراضاً مفصلاً لهذا الكتاب ثم نشره في كتاب باسم "النظر السموقي في سيرة الفاروق" أو "الفرق". هذا الكتاب مثل منقوده "الفاروق" يشتمل على جزأين ضخمين، ففي الجزء الأول 292 صفحة وفي الثاني 672 صفحة، البالغ عدد صفحاتهما جملة 968، مقارنة لـ"الفاروق" البالغ عدد صفحاته في جزأين 580. وهذا يعني أن هذا الاستعراض أصبح أضخم بكثير من أصله. ومن خلال مطالعة أولى صفحاته يمكن لنا الاطلاع على ميول وآراء المعلق وبقدراً متقدماً في دراسة هذا الاستعراض، نشعر

العدد الخاص مجلة الهند

بشدة في إحساساته ومرارة في أسلوبه، فعلى سبيل المثال، لنراجع أولاً عدة مقتبسات من مقدمة هذا الاستعراض، يقول في ثناياها:

"من الواقع أن العديد من الأبصار كانت معلقة في انتظار نشر كتاب "الفاروق" وذلك أن صاحب الكتاب لم ينشر إعلاناً في "المأمون" فحسب، بل قدّم المؤلف المحترم في "سيرة النعمان" شخصية عمر بن الخطاب بهدف أن تجعل رأس الخلفاء المعروفين من جديد في فترة، ساد تيار المناظرة بالأردوية بين أهل السنة والشيعة. ويضيف قائلاً:

"كان موقف السير سيد أحمد خان إزاء الأمة المسلمة الهندية أهل السنة أو الشيعة أن تعيش معاً متحدة ومتعاونة ومتناسية النزاع المسلكي العريق بصدد أمر الخلافة. وكان بعد رؤيته وحزمه مانعين من ظهور أي تصنيف، يضيي لوناً جديداً على النزاع المسلكي بين أهل السنة والشيعة ولكن جرأة المؤلف قد ضمته في جماعة السلسلة الأصفية، عندما قام بتأليف "الفاروق" وقطعت أسباب علاقته مع كلية عليجراه للمسلمين، التي نشأ المؤلف وترى في بيتها تعلمًا واكتساباً وفي عبارة أخرى، أنه زاد فتيلة قنديله، التي نما وارتقى في ظله إحراقاً واشتعالًا".

"من الأسف أن "الفاروق" طبع ونشر بعد وفاة السير سيد أحمد خان، فلئن نشر في حياته، فقد كنا اطلعنا على رأيه، وهو يكتب مقالاً تحقيقياً ضد هذا الكتاب حسبما كان أبدى نيته في حياته".

ثم يقول وهو يلقي نظرة إجمالية على الجزء الأول لـ "الفاروق" قبل الخوض في صلب الموضوع: "بدأت حالياً مراجعة الجزء الأول لـ "الفاروق" بعد الحصول على هذه النسخة بغاية من الصعوبة، ولا شك في أن المؤلف رتب هذا الكتاب بسليقة فائقة ولم يحاول مجرد تطوير مبحث أفضلية عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالنسبة لإطار المذهب الشيعي، بل إنه سعى في إثبات أفضليته على نبي الإسلام -عليه الصلوة والسلام- ونسبة أساس الدين الإسلامي- وهو التوحيد وترك الوثنية- إلى أسرته وابن عمه زيد. ولو اتبع المسلمون أهل السنة والشيعة خطوة آثار المؤلف، لأمكن لهم أن يتفادوا من الجدليات التي تفترض

برسالة النبي الكريم وكونه ابن عم لعلي رضي الله عنه وبالتالي تثبت أفضلية علي المرتضى رضي الله عنه وبهذا الطريق لا بد لهم من التسليم بضعف رسالة محمد صلى الله عليه وسلم والإقرار بأن عمر وأسرته كانت معلم الرسول، الأمر الذي سيقتضي أن أسرة عمر هي أشرف من أسرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم".

رد المعلق المؤقر على العلامة شبلي النعماني كتابه حرفاً وحرفاً وأنكر كل ما كتب عن شخصية عمر الفاروق وشجاعته ونجابهته وعقليته الفريدة وعبقريته الإدارية ومكانته القيادية وكريم خلقه وما يتعلق بعدله وإنصافه وما يتسم به من السمات الفطرية الصادقة، ولكن مما يؤسف له أن المعلق قد اتخذ لنفسه منهجاً غير علمي خلاف ما اتخذته العلامة شبلي في كتابه من المنهج العلمي والطريقة البحثية. فقد لجأ المعلق في استعراضه إلى التعبير عن مشاعره لا غير، قلما تنم عن صدق المعلق وإخلاصه، فمثلاً قد قام شبلي في بداية الجزء الثاني من "الفاروق" باستعراض إجمالي لفتوحات عهد الخليفة الراشد الثاني، ولكن المعلق قد مارس نقداً طويلاً لهذا الجزء مشيراً إلى أن الإسلام نال في زمن النبي صلى الله عليه وسلم القوة والغلبة لا بفضل عمر، بل بسبب علي المرتضى رضي الله عنه. فيشرح قائلاً:

"يبدأ المؤلف الجزء الثاني بإلقاء نظرة إجمالية على الفتوحات التي تحققت في عهد عمر الفاروق رضي الله عنه، وبحث في بدايته بالنسبة إلى المصنفين الأوروبيين قائلاً: لماذا قلب عدد من ساكني البادية في الدولتين الروم وفارس رأساً على عقب؟ وأبدى رأيه بأن: "كانت مملكتا الروم وفارس حتى في فترة ازدهار حكمهما لا تستطيعان أن تقاوما الغزاة المسلمين بفضل ما تعودوا عليه في صحبة مؤسس دين الإسلام من الحماس الديني والعزم الراسخ والجرأة وطموح الهمة والشجاعة وغيرها من الخصائص، التي ازدادت قوة واشتعالاً بقيادة عمر الفاروق رضي الله عنه. غير أن هذه الخصائص، رافقتها خصيصتان بارزتان، ساعدتا لا فقط في نيل الفتوحات الإسلامية، بل في إقامة الدولة الإسلامية. وكان في طليعة هاتين الخصيصتين: صدق المسلمين وأمانتهم، فبعد أن فتحت لهم أي منطقة، كان ساكنوها يحبون المسلمين وصدقهم إلى حد كانوا لا يطمعون أبداً في انهيار حكومتهم" وسبق أن ارتأينا أن الفتوحات التي تحققت في عهد عمر الفاروق رضي الله عنه، كانت تعمل وراءها قوة

التدبر التي قد تحققت في عهد الرسالة بفضل التعليم المحمدي وقوة ساعدي حيدر كرم الله وجهه والتي أدت إلى اتقاد روح الحماس الإيماني والعزم الراسخ والجرأة وطموح الهمة والشجاعة في نفوس المسلمين، ولكن هذه الأمور كلها تكون من الصحة والقطعية، إذا لم تتعد حدودها، ولكني مع الأسف لا أستطيع أن أتفق على أن الحركة التي أطلقها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، قد أصبحت أكثر نشاطاً وحيوية بفضل عمر رضي الله عنه. وما نسب إلى عمر رضي الله عنه عقيدة من تقوية الحركة وتنشيطها، السبب الأصلي وراء ذلك كله هو أن علي المرتضى رضي الله عنه لم يقم بفرض الخلافة الأولى أو الثانية، بل أقرها على حالها مؤكداً على جدارته بها وأنقذ المسلمين من الخوض في حرب أهلية محتملة الوقوع، عندما لم يبد أي نوع من المعارضة على احتلال غيره منصب الخلافة ولم يحدث الفوضى في جماعة المسلمين. وهذا هو ما نعتقده ولم نزل نعلنه منذ مدة غير قليلة".

وبالإضافة إلى ذلك، هو يعتقد أن عمر رضي الله عنه لم يؤسس أي دولة بقوة ساعديه وفي الختام هو يصل إلى النتيجة أن:

"يمكن أن تتم المقارنة بين ما كتبه المؤلف من ترجمة عمر الفاروق رضي الله عنه وما توصل إليه من النتائج من خلال تغيير نوعية هذه الوقائع وبين ما عبرت عنه في هذا الاستعراض من المعطيات الصحيحة وبدراسة هذه الموازنة يتبين أن الخصائص والسمات التي أراد المؤلف نسبتها إلى عمر رضي الله عنه، لم تكن هذه أوصافاً ذاتية له".

لو درسنا "الفاروق" واستعراضه "الفرق" دراسة تحليلية موضوعية، لوجدنا أن هناك بوناً شاسعاً بين هذين الكتابين، ف"الفرق" ليس فيه سمة التحقيق ولا موضوعية تاريخية، ولا نجد فيه شيئاً يستند إلى المصادر الموثوق بها ولا فيه روعة بيانية ولا انطلاقة في الأسلوب، بل يغلب عليه طابع الأسلوب القديم، يمجّه الذوق السليم، ولذلك لم ينل هذا الاستعراض قبولاً عاماً ولا تداوله الناس اليوم، بينما كتاب "الفاروق" يعرفه كل من هبّ ودبّ في أرجاء العالم.

المصادر والمراجع

1. رسائل شبلي، دارالمصنفين، أعظم كره، 1928م
2. شبلي مؤرخاً، دار الاعتقاد للنشر، 1979م
3. الفاروق، المكتبة العلمية، دلهي، عام 1951م
4. مجلة "علي كره إنستيتيوت غزت الصادرة عن جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند
5. مقالات الشيرواني، مطبعة الشيرواني، علي كره، الهند، 1946م

"تعليم المسلمين الماضي" أول كتاب للعلامة شبلي خلال إقامته بعلي كره (دأرة تعریفية)

- أ. د. ظفر الإسلام الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوة: د. أورنك زيب الأعظمي²

يعرف العلامة شبلي النعماني (1857-1914م) كاتبًا كبيرًا للسيرة ومفكرًا عظيمًا وماهرًا للمعارف ومؤلفًا شهيرًا، ولحياته القصيرة فترات أمضاها إما في علي كره أو حيدرآباد أو لکنآؤ أو أعظم كره إلا أن الفترة التي قضاها في علي كره مهمة لأن العديد من مؤلفاته القيمة كتبت بها (ولا شك أن سيرة النبي عمل رائع للعلامة شبلي لن يعادله أي أعماله) ولقد أنفق العلامة شبلي حوالي 15 سنة في علي كره كأستاذ مشهور لكليتها الشرقية (M.A.O) وكان يؤلف بها الكتب بجانب تدريس الطلاب³ فكتب حول المواضيع العديدة بما فيها تعليم المسلمين⁴ فالكتاب الذي نودّ دراسته يتعلق بهذا الموضوع ويحتل أهمية خاصة لأنه أول كتاب منشور للعلامة شبلي خلال فترة قيامه بعلي كره ولنعلم أن أول عمل صدر للعلامة شبلي بعد انتسابه إلى الكلية هو "مثنوي صبح أميد" (ملحمة فجر الأمل) والذي نشر في 1886م ولقد اعتبره تلميذه البار

¹ أستاذ، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

² أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

³ ليراجع للتفصيل: تعليم عهد إسلامي ك هندوستان ميں، ص 18-43

⁴ تم ترتيب مقالات شبلي عن التعليم في المجلد الثالث لمقالات شبلي

العدد الخاص مجلة الهند

السيد سليمان الندوي، وصدق في تعبيره، وصقًا جميلًا لحركة علي كره التعليمية¹ والكتاب الذي نحن بصدد التعريف به تمت كتابته، على إشارة من السير سيد أحمد خان، كمقالة للجلسة الثانية لمؤتمر المسلمين التعليمي (المنعقدة في 27/ديسمبر 1887م بباره دري، قيصر باغ، لکناؤ فلما أُلقيت هذه المقالة في هذه الجلسة أعجبوا بها وطار صيتها في كل أنحاء البلاد وكما قال السيد سليمان الندوي "هذا أول صوت بلغ أذان المسلمين عن مآثر أسلافهم فضجت الهند كلها بهذه الخطبة وهذا أول أفق أشرقت منه شمس سمعة العلامة شبلي النعماني"² ثم نشرت هذه المقالة في صورة كتاب على عناية من السير سيد أحمد خان.

هذا الكتاب الوجيز المحتوي على 80 صفحة رائع جدًا وتبدو أهميته من خلفية ترتيبه وطبعه وذلك أن نشر التعليم لاسيما حل قضية تعليم المسلمين كان نقطة مركزية لمشروع السير سيد وبعدما وسّع نطاق هذا المشروع وبثّ الوعي في القوم طلب من حواشيه من الكتاب والمخبرين أن يكتبوا عن الموضوعات التعليمية ما يقدم في الجلسة القادمة للمؤتمر فاختار العلامة شبلي لنفسه موضوع "تعليم المسلمين الماضي"³ فلم يحبه السير سيد فحسب بل أعلن عن كاتبتها أنه سيقدم مقالته بهذا الموضوع في الجلسة القادمة للمؤتمر فكتب العلامة شبلي رسالة إلى أحد أحبّته في 8/مايو 1887م أخبره فيها بهذا الإعلان وأبدى عن عزمه على بذل ما وسعه من الجهد لكتابة هذه المقالة فهو يكتب إلى أحبّ تلامذته الشيخ محمد سميع من نيني تال (Naini Tāl) حيث نزل مع السير سيد: إن مؤتمر المسلمين التعليمي سينعقد هذه السنة في لکناؤ وقد أعلن بأن شبلي سيقدم مقالة طويلة في موضوع "تعليم المسلمين الماضي" ولعلي سأكتب هذه المقالة بكل جهد مضمّن وأوفرّ فيها معلومات نادرة⁴ وكذا

¹ حيات شبلي، ص 139

² المصدر نفسه، ص 171

³ خطوط سر سيد، ص 70

⁴ مكاتيب شبلي، 83/1

أخبر بها السير سيد عن إعداد هذه المقالة وتقديمها في الجلسة كل عضو للمؤتمر¹ ولما قدّمت المقالة إلى السير سيد بعد إتمامها فقال السير سيد إن العديد من الكتاب قد وعدوا أنهم سيكتبون مقالاتهم لهذه الجلسة ولم يوفوا بها فلما أتمها العلامة شبلي صدّق ما قال الله تعالى: "والموفون بعهدهم إذا عاهدوا"². فلما نالت المقالة قبولاً عاماً بعدما ألقاها العلامة شبلي في الجلسة فنشرها السير سيد بكل عناية من قومي بريس، لكتاؤ في يونيو، 1888م وتبدو عنايته بنشر هذه المقالة أن أولى مراحل نشرها بدأت في يناير، 1888م ولو أنها صدرت في يونيو نفس العام فيكتب العلامة شبلي إلى أخيه محمد إسحاق في رسالة مؤرخة في 14/ يناير، 1888م: لقد نجح المؤتمر أكثر مما ظننا ولو أنك لم تحضره ولكني أكّدت على أكبر حسين (المراذبادي) أن يخبرك بكل ما حدث، وستنشر مقالتي على حدة وستشمل ستة أجزاء وأما القصيدة فستنشر مع هذه المقالة والتقرير كليهما³ وتبدو أهميتها لدى السير سيد من أنه اعتنى بإرسال نسخة من هذه المقالة إلى كل من أعضائه وقال: لقد نشرت مقالة الشيخ محمد شبلي الرائعة التي كانت حول تعليم المسلمين الماضي وأرسلت إلى كل عضو للمؤتمر⁴ يبدو من بعض القرائن أن السير سيد لم يزل يرسل نسخها إلى مخيري الكلية وقتاً لآخر فلما أراد النواب عماد الملك السيد حسين البلغرامي أن يصبح عضواً للمؤتمر في نوفمبر، 1889م فأخبره السير سيد بتفاصيل فعاليات المؤتمر كما أرسل إليه هذه الرسالة قائلاً: لقد اختار الشيخ محمد شبلي مقالته التاريخية في تعليم المسلمين الماضي، والتي نرسلها إليكم وأظن أنه أعد شيئاً جيداً رائعاً⁵ ولا يخلو من الأهمية أنه لو ذكرنا هنا أن هذه الرسالة طبعت في يونيو، 1888م وكتب عليه السير سيد استعراضاً مفصلاً في غضون شهر تقريباً نشر في

¹ مكاتيب سر سيد، ص 174-175

² علي كده إنثيثوت كزث، 23/55، 10/يوليو، 1888م، ص 773-774

³ مكاتيب سبلي، 1/23-24

⁴ مكاتيب سر سيد، ص 174

⁵ خطوط سر سيد، ص 136

العدد الخاص مجلة الهند

العدد العاشر ليوليو، 1888م لعللي كره إنستيتيوت غزت. هذا استعراض جامع يلقي الضوء على هذه الرسالة فنود أن نقتبس منه فيما يلي:

"ولو أن هذه الرسالة في مجرد 80 صفحة ولكنها تحفل بمعلومات عن تعليم المسلمين الماضي بحيث لا نجد قدرها مجموعة في كتاب واحد ولقد كتب المؤلف في موضع أني لم أظفر بما احتاج إليه من التفاصيل للكتابة عن هذين المبحثين وتلك هي ترجمات الفلسفات اليونانية، وأسماء المترجمين ومؤلفاتهم، وتفاصيل دور العلوم والمدارس الإسلامية، وطرق تدريسهم، والمناهج الدراسية، ومما شابهها من المعلومات التي لم أعر عليها في كتاب خاص بها" والواقع كذلك ولكننا نثني على جهد الكاتب الجهد وبحثه المضني بأنه جمع هذه المعلومات من أماكن عديدة فتارة اضطر إلى كتاب التاريخ لخلفاء بني أمية وبني العباس وتارة أخرى إلى سير الأمراء وتارة ثالثة إلى تراجم العلماء وحتى أجبر على قراءة أخبار الشعراء وكذا جمع ما وجده لدى العلماء الغرب بالاعتراف بمتهم تلك وهكذا فنجح في نيته".¹

والأهم من ذلك أنه انتقد، من بعض الجوانب، أنشطة المؤسسة التي أقامها السير سيد فلم يقبلها السير سيد عن رضى فحسب بل كتب في استعراضه: ولقد أورد الكاتب اعتراضاً صحيحاً على مؤسستنا، لا نصرف النظر عنه². والواقع أننا لا نجد أحداً قبل النقد والاعتراض على كتاباته خاصة إذا كان الناقد أصغر منه سنًا وقدرًا ومن الأسف أن بعض الكتاب وصفوا اعتراض شبلي هذا على السير سيد هو البداية للتراز بينه وبين السير سيد والحق خلاف ذلك. وهكذا أن أهمية هذه الرسالة تبدو في نظر السير سيد من أنه لم يزل يعلن في مجلته أن من اشترى عشرين أو ثلاثين أو أربعين نسخة من هذا الكتاب فهو يعطى تخصيصاً معيناً وكان يكتب اسمه تحت هذا الإعلان³ وليس هذا فقد بل تم استعراض هذه الرسالة في مجلات وصحف أخرى ولما قرأ الناس استعراضها في مجلة "دلگداز" الشهرية الصادرة عن لکناؤ تاقث أنفسهم

¹ علي گدّه إنتيتيوت گزت، 55/23، 10/يوليو، 1888م، ص 773-774

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

³ ولنشر الإعلان راجع: علي گدّه إنتيتيوت گزت، 55/23، 7/يوليو، 1888م، ص 763-764

لشرائها وكما قال الشيخ عبد الحليم شرر: هذه المحاضرة شيء جديد وممتع للمسلمين ولذا فلما استعرضتها مجلة "دلگداز" تهافت الناس على قراءتها"¹.

وبصرف النظر عن هذه الأمور تبدو أهمية هذه الرسالة من قراءة محتوياتها ولا شك في أن كتاب العلامة شبلي الأول خلال قيامه بعلي كره يحتل منزلة كبرى نظراً لسعة مباحثه، ومستوى بحثه، وجودة لغته وجدة أساليبها فلقد صبح السير سيد حينما اعتبره "يتيمة الدهر" و"فاقد النظير"² وإن هذه الرسالة تتصف بالتاريخ باعتبار احتوائها ونعرف جيداً أن التاريخ والسير موضوع محبوب للعلامة شبلي ويشهد به كافة كتبه القيمة لاسيما التي صُنفت في علي كره من مثل المأمون وسيرة النعمان وسفرنامه روم ومصر وشام والفاروق والجزية ومكتبة الإسكندرية وإسلامي شفاخان (المستشفيات في العهد الإسلامي) وحقوق الذميين ومن الممتع أنه لما أمره السير سيد بكتابة "تعليم المسلمين الماضي" اعتبره تاريخياً ولو أنه لم يره في صورة تامة كما يبدو من رسائله المرسلة إلى أعضاء المؤتمر³. فيمكن أن نستنتج من هذا أنه لما أمر السير سيد العلامة شبلي بكتابة هذه الرسالة أرشده إلى أمور ضرورية وعلى كل حال فقد سلّم جانبها التاريخي ويؤيد ما قلنا رأي الشيخ عبد الحليم شرر عن هذه الرسالة فهو يقول مشيراً إلى أشغال العلامة شبلي التأليفية بعلي كره: لما أمره السير سيد إلى موضوع التاريخ والنقد والتحقيق فيه وأجمل نموذج له رسالته "تعليم المسلمين الماضي" التي كتبها لتقدّم في الجلسة الثانية والثالثة لمؤتمر المسلمين التعليمي"⁴. ولا يخلو من الإمتاع لو ذكرنا هنا أن العلامة شبلي النعماني قد صرح في كتابه "علم الكلام" (المطبوع في 1902م) عن جانب كتبه التاريخي فقال: لقد عيّنت موضوع مؤلفاتي منذ فجر تألّيفي هو التاريخ فما صدر من قلبي حتى الآن كان موضوعه

¹ ماهنامه "دلگداز"، 12/16، ديسمبر، 1914م، 285

² علي گذه إنتیثیوت گزٹ، 55/23، 7/يوليو، 1888م، ص 764، مكاتیب سر سيد، ص 176

³ مكاتیب سر سيد، ص 174-175

⁴ دلگداز، ص 285

العدد الخاص مجلة الهند

التاريخ¹ وعلاوة على ذلك لنعلم أن كلمة "الماضي" المذكور في موضوع المقالة تدل على تاريخيتها والأهم من تلك أنه ثابت من النظر على محتوياتها.

يبدو من النظرة الخاطفة على هذه الرسالة أنها عالجت ما يلي من الأمور:

1. ما هي العلوم التي أوجدها المسلمون وما هو الدور الذي لعبه القرآن في ترويجها؟
2. ما هي علوم الأجانب التي استفاد منها المسلمون ثم كيف طوّروها من لديهم؟
3. ما هي الخطوات التي اتخذوها لترويج العلوم العقلية في المسلمين في العصر العباسي؟
4. كم كتابًا ترجم إلى العربية من اليونانية والفارسية والسندسكريتية وكم مترجمًا قام بهذا العمل وفي عصر كم خليفة تم هذا العمل؟
5. كم مدرسة أقيمت في عهود التاريخ الإسلامية الأولى وأين أقيمت ومن بناها وفي عصر كم خليفة أقيمت؟
6. من كان يعلم في هذه المدارس ومن كان عميدها وكم عالمًا تخرج منها وكم مألًا صرف لرواتب أساتذتها ومنح طلابها؟
7. أي منهج دراسي كانوا يتبعونه وكم مقررًا دراسيًا كان فيها؟

وفي بداية استعراض هذه الرسالة لخص السير سيد محتوياتها وهذا الملخص جامع للغاية فهو يقول:

"لقد أجاد الكاتب عن عدد العلوم التي تم إيجادها في الإسلام وكم علمًا طوّروه وكيف انتشرت هذه العلوم وكيف كان تدريسها ثم ماذا أضاف إليها بنو أمية وبنو عباس وكيف نقلوا علوم اليونان إلى لغتهم ثم كيف طوّروها فبلغوا بها ذروة لو كان اليونان أحياءً لبهتوا ولرأوا أن البذرة التي بذروها في الأرض كيف نمت وعلت فأعطت ثمارها وكذا أشار إلى العلوم التي لم يمتها عليهم غيرهم بل هم الذين أوجدوها"².

¹ علم الكلام، ص 11 (مقدمة)

² علي كده إثنثيوت كزث، 55/23، 10/يوليو، 1888م، ص 773-774

ولنوضح هنا أن جانباً مهماً لهذا الكتاب هو إلقاء الضوء على أنه لما أخذ المسلمون علوم الأجانب كيف كانت وكيف أصبحت بعد أن اعتنوا بها وكان العلامة شبلي يعرف أنه لم يسعه توضيح هذه القضية ففصلها وأراد أن يؤلف كتاباً منفرداً بها فيقول في الهامش تحت الموضوع: لو وجدت الفرصة لكتبت رسالة توضح هذه القضية أي كيف كانت العلوم حينما أخذها المسلمون وكيف أصبحت بعد عنايتهم بها وستقدم هذه الرسالة إن شاء الله في الجلسة القادمة للمؤتمر¹ وعلى كل حال فيمكن بهذا القول تقدير أهمية هذه الرسالة وكم من بحث فتح بابها هذه الرسالة.

وملقياً الضوء على خدمات المسلمين في نشر العلوم والفنون ومنهجهم الدراسي القديم في هذه الرسالة لقد ركّز العلامة شبلي على نقاط تالية:

1. أن القرآن لعب دوراً ريادياً في إيجاد العلوم العديدة
2. أن المسلمين لم يستحيوا من الاستفادة من الأجانب واعترفوا بما تعلّموا عليهم
3. العلوم التي تعلّمها المسلمون على اليونان وغيرهم طوّروها وبلّغوها إلى ذروة الكمال
4. أن المدارس لها دور قيادي في ترويج العلم في المجتمع الإسلامي ولا يخلو منه أي عهد من عهود الإسلام
5. أن الحكام والأغنياء المسلمين جادوا بالأموال في إقامة المدارس وتنظيمها

والجانب الآخر لهذه الرسالة أسلوبها التحقيقي فالواقع أنما بذله العلامة شبلي من جهود جبارة في جمع المعلومات من مختلف المصادر ثم رتبها ترتيباً حسناً يجدر بأن نثني عليه ولقد استفيد من مختلف المصادر في إعداد هذه الرسالة، كما أشار إليه السير سيد، بما فيها تراجم الخلفاء والأمراء والعلماء والكتب المنظومة ومؤلفات الغرب عن علوم اليونان وفنونهم².

ولا يخلو من الأهمية لو ذكرنا هنا أنما قام به السير سيد من سعة نطاق مصادرها ليس بخطأ كما يبدو من نظرة سارحة على مصادرها لأنها يضمّها سير الخلفاء والأمراء، وتراجم

¹ مقالات شبلي، 17/3 (هامش، رفق/ 1)

² علي كذه إثنثيوت كزث، 55/23، 10/يوليو، 1888م، ص 773

العلماء وكتبتهم، وكلام الشعراء، وكتب المؤلفين الأوروبيين بل قد أخذ على بيانهم في غير موضع كما يبدو من دراسة هذه الرسالة، وبدأ لي من النظرة العاجلة على هذه الرسالة أن 41 كتاباً استفاد منها العلامة شبلي في إعدادها بما فيها 34 كتاباً بالعربية، و3 كتب بالفارسية، و4 كتب بالإنجليزية، وقد أشير إلى 33 كتاباً منها في الهامش بينما البقية جاء ذكرها في المتن وكذا وفّرت معلومات تفصيلية لمعظم هذه المصادر، ولنعلم أن العلامة شبلي قد أحال إلها في الهامش بصورة منتظمة فيثبت من هذا أن العلامة قد استخدم طريقة Reference التي تعتبر منة القرن التاسع عشر والقرن العشرين للميلاد وهذه كلها شاهد عدل على سعة اطلاع العلامة شبلي، وودوقه التحقيقي، ورؤيته النقدية ولا شك أننا لا نصرف الذكر عن تأثير بيئة علي كره العلمية الجديدة فيه.

وعلاوة على ذلك فالرسالة لها أهمية نظراً للغتها وأساليها فما نشعر به من تأثير أسلوبها بجانب بساطة لغتها وجمالها يدلّ على ما كانوا يستخدمونها من اللغة وأساليها في البيان عن أي موضوع علمي، يقول السيد صباح الدين عبد الرحمن مشيراً إلى هذا الجانب من الرسالة: قدّمت هذه الرسالة في حين لم يكن تاريخ النثر الأردوي بطويل ولكن قوتها وإنشائها يدلان على أن الأردوية كانت تنمي اللغة وأساليها التي كانت ضرورية للبحث عن موضوع علمي خالص¹. وفوق تلك أننا كنا نشعر به من التكلف والتصنع في النثر الأردوي للقرن التاسع عشر يخلو منه هذا الكتاب الذي هو أول كتاب للعلامة شبلي خلال فترة قيامه بعلي كره.

ويشهد بقبول رسالته هذه أنها ضمت إلى مجموعة مقالاته تامة أو غير تامة. وتفصيل ما قلنا كما يلي:

1. رسائل شبلي: رتّبها العلامة شبلي وطُبعت من مطبع العلوم، علي كره، دت، ص 264-301
2. مقالات شبلي (المجلد 3): رتّبها السيد سليمان الندوي، دار المصنفين، أعظم كره، 1955م
3. انتخاب مقالات شبلي: رتّبها علاء الدين خالد، أردو أكاديمي، كراتشي، 1960م
4. انتخاب مقالات شبلي: رتّبها رضي كاظمي، أردو بيلشرز، لکناؤ، 1973م

¹ مولانا شبلي نعماني پر ایک نظر، ص 15-16

5. انتخاب مضامين شبلي: رتبها رشيد حسن خان، مكتبه جامعة، نيو دلهي، 1972م¹

ويناسبنا أن نوضح هنا أن جزء مقالته "تعليم المسلمين الماضي" الذي هو عن المدارس ودار العلوم قد نشر على حدة في المجلد الثالث لمقالات شبلي² فيخطر ببال القراء أنها مقالة أخرى بينما "المدارس ودار العلوم" و"تعليم المسلمين الماضي" جزءان لمقالة واحدة كما يتضح من طبعتهما من قومي بريس (لكناؤ) فالجميل أن ينشر الجزءان في صورة مقالة واحدة لا كمقالتين على حدة.

وفي الأخير أن هذه الرسالة تعلمنا درساً أنه إذا زلّ المرء في مكان فليعترف بها وليقم بإصلاحها فلقد اعترف العلامة شبلي في مكانين بهذا ولعله فطن له حينما كان يعيد نشرها في مجموعة رسائله فقام بإعادة النظر في كتابته وتفصيل ما قلنا كما يلي:

الألف: قال مسلطاً الضوء على منهاج مدارس تركيا التعليمي في مكان من هذه الرسالة تحت عنوان "المدارس الإسلامية ودور العلوم":

"كانت رواتب الأساتذة في عهد الأتراك هائلة فكان ينال المدرّس في المدارس الكبرى من 60 درهماً إلى 80 درهماً"³

فأوضحها في "مقالات شبلي":

"لقد رجعت عن هذا الرأي حين رحلتي إلى تركيا فالذي نسمّيه درهماً هو نقدٌ والذي يسمّونه "قرشاً" وهو يقدر بأنتين وهكذا فلم تثبت هذه الرواتب هائلة"⁴.

الباء: وكاتباً عن تاريخ المدارس الإسلامية في الهند قال عن الهند في العهود المتوسطة:

"لنقل بدون خوف عن الهند أنه لم يقدّم مبنًى في صورة مدرسة"⁵.

¹ آثار شبلي، 510-511، و515-516

² مقالات شبلي، 3/37-77

³ رسائل شبلي، ص 290، مقالات شبلي، 3/66

⁴ رسائل شبلي، ص 290 (هامش، رقم: 1) ومقالات شبلي، 3/66 (هامش، رقم: 1)

⁵ رسائل شبلي، ص 298، ومقالات شبلي، 3/73